الكتاب الثاني

مطالب المستقبل العربي: هموم وتساؤلات

دكتور/ قسطنطين زريق

تحليل وعرض أ.د/ سليمان الخطيب[١]

سيرته ومؤلفاته:

ولد قسطنطين زريق في مدينة دمشق بتاريخ ١٨ نيسان ١٩٠٩، لعائلة أرثوذكسية عُرفت بتعاطيها الأعمال التجارية، وكانت تقطن حي القيمرية، وهو من أشهر أحياء دمشق القديمة، ومن أهم مواطن التجار الدمشقيين. وكان والده قيصر قد هاجر إلى كولومبيا ثم عاد قبل الحرب العالمية الأولى وتزوج وأنجب أربعة أولاد كان قطسنطين أكبرهم، ثم نزح الأب قيصر مجددًا إلى كولومبيا في عام ١٩٢٣ وتوفي بعد عام واحد وهو في المهجر.

أمضى قسطنطين طفولته وصباه في دمشق، وكانت عائلته قد انتقلت إلى دار للسكن تحيط بالكاتدرائية والمدارس الأرثوذكسية، وتجاور الأحياء الإسلامية. وقد خلفت أجواء التسامح والتعاون التي سادت بين أبناء الديانتين أثرًا بالغًا في نفسية زريق وشخصيته.

أتم زريق دراسته الابتدائية والثانوية في مدارس الطائفة الأرثوذكسية. وعلى الرغم من الارتباط الطائفي لهذه المدارس، إلا أنها ضمت عددًا لا بأس به من التلامذة المسلمين، وعرفت برفعة مستواها خصوصًا في العلوم العربية.

التحق زريق بالجامعة الأمريكية في بيروت، وبدأ تخصصه بالرياضيات، إلا أنه

---

(١) أستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة المنيا (توفي إلي رحمة الله في يوليو ٢٠١٠ م)

تحول إلى التاريخ بعد وقت قصير بتشجيع من بعض أساتذته الدينيين. وكان قد شغر حينذاك كرسي التاريخ العربي، فرُشح زريق لإتمام دراسته التخصصية في الولايات المتحدة في هذا الموضوع، إعدادًا له لتولي هذا الكرسي. وبعد أن تخرج زريق بدرجة البكالوريوس في الآداب بامتياز عام ١٩٢٨، سافر إلى الولايات المتحدة حيث نال الماجستير من جامعة شيكاغو في عام ١٩٢٨ والدكتوراه من جامعة برنستون في عام ١٩٣٠.

توزعت الوظائف التي احتلها زريق في حياته العملية بين التدريس الجامعي والعمل الأكاديمي الإداري والمناصب الدبلوماسية. فلقد عُين بعد تخرجه مباشرة أستاذًا مساعدًا في التاريخ بالجامعة الأمريكية في بيروت، ورُقي إلى أستاذ مشارك في العام ١٩٤٢، وعمل زريق بعد الحرب العالمية الثانية ولفترة ثلاثة أعوام (١٩٤٥-١٩٤٧) في السلك الخارجي السوري حيث خدم كمستشار أول، ثم كوزير مفوض في المفوضية السورية بواشنطن، وكان خلال ذلك عضوًا مناوبًا في مجلس الأمن.

عاد زريق بعد تجربته القصيرة في الميدان الدبلوماسي إلى الحياة الأكاديمية، حيث التحق بالجامعة الأمريكية من جديد وعُين أستاذًا للتاريخ، ونائبًا لرئيس الجامعة. وفي العام ١٩٤٩ أصبح رئيسًا للجامعة السورية، وبقي في هذا المنصب حتى العام ١٩٥٢. وأعيد تعيينه في ذلك العام نائبًا لرئيس الجامعة الأمريكية، وعميدًا للكليات إلى أن أصبح رئيسًا للجامعة بالوكالة بين الأعوام (١٩٥٤-١٩٥٧). وحصل في عام ١٩٥٦ على لقب أستاذ ممتاز للتاريخ، وعلى لقب أستاذ شرف في عام ١٩٧٦، كما أنه خدم كأستاذ زائر في جامعة كولومبيا عام (١٩٦٥)، وجامعة جورج تاون (١٩٧٧)، وجامعة يوتا (١٩٧٧).

إلى جانب وظائفه الرسمية المتعددة، نشط زريق في العديد من المنظمات الثقافية الإقليمية والعالمية، واحتل مناصب رفيعة في العديد منها: عضو مراسل في مجمع

اللغة العربية في دمشق، وعضو مؤازر في المجمع العلمي العراقي، وعضو فخري في الجمعية التاريخية الأمريكية، وكان عضوًا في المجلس التنفيذي لليونسكو (١٩٥٠-١٩٥٤)، وعضوًا في المجلس الإداري للهيئة الدولية للجامعات (١٩٥٥-١٩٦٥)، ورئيسًا لجمعية أصدقاء الكتاب في لبنان (١٩٦٠- ١٩٦٥)، ورئيسًا لمجلس أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية منذ أن أسست هذه المؤسسة في عام ١٩٦٣. وهو منذ عام ١٩٧٩ من أعضاء مجلس أمناء جامعة قطر.

كما شملت نشاطات زريق الثقافية المميزة عضويته في الهيئة الدولية لكتابة التاريخ العلمي والحضاري للإنسانية، التي رعتها منظمة اليونسكو (١٩٥٠-١٩٦٨)، ورئاسته للجنة الخبراء التي قامت بتقديم المشورة للحكومة الكويتية حول إنشاء جامعة الكويت. وتقديرًا لنشاطاته فقد قامت الحكومة السورية بتقليده وسام الاستحقاق (درجة ممتازة)، وقلدته الحكومة اللبنانية وسام المعارف (درجة أولى) ووسام الأرز الوطني (درجة كوماندو) ومنحته جامعة ميشغان دكتوراه فخرية في الآداب.

أتقن زريق اللغتين العربية والإنجليزية وكتب بهما، وأجاد الفرنسية وألم بالألمانية. إلا أن الحيز الأكبر من كتاباته كان بالعربية، وهي اللغة التي يبدو أنه كان يفضل دومًا الكتابة بها. وهذه إحدى ميزات المفكر قسطنطين زريق، فعلى الرغم من أنه قضى جميع مراحل دراسته الجامعية في مؤسسات أجنبية، إلا أنه اختار أن يخاطب باستمرار القارئ العربي، وأن يتوجه في كتاباته إليه، وأن تكون المواضيع التي يختار الكتابة بها ذات صلة مباشرة بالأوضاع السائدة في الوطن العربي وبمستقبله.

يُعتبر زريق من أبرز المفكرين القوميين، هذا التيار الذي بدأ ينمو منذ بداية القرن العشرين، بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية، حيث التف حول زريق مجموعة من القوميين الذي عُرفوا بجماعة الكتاب الأحمر.

كما وتبنى قسطنطين زريق في كتاباته عددًا من المفاهيم الأساسية التي أمدته في مجموعها بإطار ذهني أضفى على إنتاجه طابعًا مميزًا. وأهم هذه المفاهيم ثلاثة: الحضارة والعقلانية والقومية. وقد اعتمد زريق أول هذه المفاهيم الثلاثة منطلقًا لمعالجة كافة قضايا المجتمع العربي، التي تطرق إليها واعتبره (الحيز الذي تنبثق منه وتنتظم فيه مختلف القضايا القومية والإنسانية). وأمد مفهوم الحضارة فكر زريق ببعده الشمولي وأتاح له النظر إلى نواحي المجتمع المختلفة كوحدة مترابطة متفاعلة، حيث يعسّر فهم ناحية منه دون الرجوع إلى النواحي الأخرى.

كما استطاع زريق أيضًا باعتماده لمفهوم الحضارة أن يبلور أفكاره ضمن إطار إنساني وعالمي، وأن يخرج من مزالق القوقعة الذاتية التي طغت على العديد من مسارات الفكر العربي الحديث، فمفهوم الحضارة هو معيار للمقارنة بين المجتمعات، وقياس مدى تقدمها ورقيها وللحكم على الأمور، وللدلالة على وحدة العنصر البشري ووحدة مصيره في الماضي والحاضر.

وأما بالنسبة إلى العقلانية فلقد احتل هذا المفهوم في فكر زريق مكانة رئيسة وشكل الواسطة التي أراد زريق لها أن تكون معبر العرب إلى الثقافة الحديثة، واعتمد في هذا المجال تعريفًا للعقلانية يتألف من عنصرين هما العلم والخلق... وأخيرًا حاز مفهوم القومية على الجانب الأكبر من اهتمامات زريق. فلقد نظر زريق إلى المسألة القومية على أنها مسألة الحياة العربية، وعمل جاهدًا على بلورة الشعور والتربية القوميين. ومع أنه لم يقدم في كتاباته على تطوير فلسفة قومية متكاملة، إلا أنه نجح في إثارة هذه القضايا ولفت أنظار المفكرين العرب الآخرين إلى ضرورة التصدي لها ومعالجتها ولعل من أهم مساهماتها في هذا المجال الكيفية التي عالج بها قضية فلسطين والتي اعتبرها محك النهضة العربية. فلقد استطاع زريق من خلال كتاباته المتعددة في القضية الفلسطينية أن يثري الفكر العربي ويحفزه على اعتماد

منطلقات جديدة في النظر إلى قضاياه القومية.

في شهر أيار من عام ٢٠٠٠ توفي قسطنطين زريق مخلفًا وراءه قائمة من الكتب والأبحاث:

- الوعي القومي (١٩٣٩).
- معنى النكبة (١٩٤٨).
- أي غد (١٩٥٧).
- نحن والتاريخ (١٩٦٣).
- هذا العصر المتفجر(١٩٦٣).
- في معركة الحضارة (١٩٦٤).
- معنى النكبة مجددًا (١٩٦٧).
- نحن والمستقبل (١٩٧٧).
- مطالب المستقبل العربي (١٩٨٣).
- من بعيد ومن قريب (مقالات وخطب - ١٩٩٤).
- كراسّي الكتاب الأحمر.

وقد جمعت هذه المؤلفات تحت عنوان (الأعمال الفكرية العامة للدكتور قسطنطين زريق) وصدرت عن مركز دراسات الوحدة العربية في أربعة مجلدات في بيروت عام ١٩٩٤، وله الكثير من المقالات التي نشرت في العديد من المجلات.

وفي الصفحات المقبلة نعرض لكتابه «مطالب المستقبل العربي» هموم وتساؤلات، وهو يدرج ضمن المشروعات الفكرية التي تهتم بمصير المجتمع العربي، ومن ثم يصبح من الأهمية بمكان التعرف على محتوى هذا المؤلف، حتى لا

نخرج عن الإطار العام لهذه المؤلفات التي يتم عرضها في سياق رصد أهم المؤلفات التي تشكل تأثيرًا ما على مصير الأمة.

وفي البداية يؤكد زريق على كون المجتمع العربي يحيا في أزمة، وهو يحاول تحليل هذه الأزمة واستقصاء أسبابها واستخلاص عبرها، وإلى معالجة هذه الأزمة التي حلت بنا وجثمت على صدورنا، والواقع أن هذا الواجب هو في مقدمات الأولويات المفروضة على المفكرين - كما يرى زريق - وهو خليق بأن يستثير جهودهم ويستنفر هممهم من أجل سلامة الحاضر وضمان المستقبل.

وهو يعرض لعدد من الفرضيات المتعلقة بمحتوى هذا الكتاب، ونقصد موضوع الأزمة التي تكاد تعصف بكيان المجتمع العربي، وأهم هذه الفرضيات:

١- مسألة التخلف العربي، هذا التخلف، هو مصدر العجز العربي الذي يبدو واضحًا على كافة المستويات.

٢- هذا التخلف له أسبابه الداخلية والخارجية، وهو يرى أن أوضاعنا الداخلية ناشئة عن موروثاتنا عن عهود الانحطاط، حيث ورثت الشعوب العربية عن هذه العهود - كما يقول زريق - الجهل المستشري والتمسك بالعصبيات الضيقة، والاستسلام للتحكم الطاغي أو للقدر المجهول، والتهالك على إرضاء الشهوات والمصالح الخاصة، والحقيقة أن هذه المصطلحات - من وجهة نظر إسلامية - لا يمكن أن تمر دون أن نقف عندها في إطار القراءة المنطلقة من هوية المجتمع الإسلامي، فعبارة مثل «التحكم الطاغي» أو «القدر المجهول» من العبارات المسيطرة على الخطاب العلماني والقومي والحداثي العربي، والذي يتعامل مع ركيزة التسليم بالقدر والإيمان بقضاء الله تعالى وصدق التوكل عليه سبحانه، كسلوك يعطل قدرات الإنسان العقلية والاجتماعية، وهذا الطرح يجهل أن التسليم بالغيب يدفع الإنسان إلى مزيد من العمل والنشاط والفعالية التي يفرضها الإسلام،

حيث يرتبط الإيمان بالعمل في كافة الآيات الداعية إلى ذلك، وقد تناسى هذا الخطاب القومي ما أحرزه وحققه الحدث الحضاري الإسلامي على كافة المستويات، حين اعتمد هذه الأسس وتلك المرتكزات في صياغة الحضارة الإسلامية، ولكن التأثر بالمذاهب القومية في إطارها الغربي، أصاب كافة المروجين للمشروع الغربي بخاصية الخضوع والانبهار الأجوف، فوقعوا جميعًا فيما اتهموا به العقل المسلم الذي لم يحسنوا ويستوعبوا مشروعه الحضاري.

وفيما يتعلق بالأسباب الخارجية فإنها تتعلق بقوة هذه المؤثرات التي تقتحم ميادين البلدان المتخلفة بسبب تفوقها العسكري والاقتصادي والسياسي، واتجهت الدول المتخلفة إلى الشكوى من الغرب المتآمر والتحذير من شروره وضرورة الثورة عليه، ولم تحاول العقول المثقفة في هذه البلاد بيان وتحليل أسباب ما آلت إليه الشعوب العربية المتخلفة والتخلص مما وصلت إليه.

وزريق هنا يسلم بالتآمر الخارجي، ولكنه يعزي ما نحن فيه إلى الشعوب العربية وسياستها التي خضعت للهزيمة، فوقعت في أسر التبعية الحضارية.

وهو يرى أن البعض يمكن أن ينظر إلى وضع قضية التخلف في مكانها المركزي وتوجيه الاهتمام بها، قد يكون له عند البعض أثر سيئ فيؤدي إلى تثبيط العزائم ونشر روح التشاؤم واليأس والاستسلام للامبالاة والتخاذل، والاندفاع وراء الرغبات الفردية والمغانم الشخصية.

وفي مقدمة الهموم التي يجب أن تشغل المفكر العربي، إعادة الثقة إلى النفوس وتحويل التراخي والارتياب واليأس إلى قلق حقيقي يثير الشعور والفكر ويحفز إلى الاستكشاف والمجابهة والصمود والبذل، وباختصار البحث عن كيفية تحويل العجز إلى قدرة. ونحن نتساءل من أين يستقي المواطن العربي هذه القوة وإعادة الثقة وقوة الإرادة لواقعنا المتخلف؟ كيف يتسنى له ذلك في غياب المرجعية

الإسلامية التي أثبتت التجربة فشل أي مشروع سياسي يغفل هوية المجتمع العربي عبر الإسلام وركائزه. وهو يصيغ أهمية استدعاء الهوية، في عبارات مبهمة، دائمًا ما تسيطر على الاتجاهات الفكرية التغريبية ومنها الاتجاه القومي، فيرى: أن معرفة الذات، فهي لا تقل عن معرفة الغير شأنًا، بل لعلها تفوقها وتتقدم عليها، وهي ترتكز على النقد الذاتي الصريح.

ومعرفة الغير والذات، تظل قاصرة، ما لم تتغلغل إلى النفس وتوقظ الضمير، في سبيل التطلع وتحقيق ما ينبغي أن يكون وتجاوز ما هو كائن.

والشعوب العربية - كما يرى زريق - تتراجع في هذا المضمار، بدلًا من أن تتقدم، وتخسر بالتالي من مقومات التحرر والنماء، ونحن نرى أن هذه القيم لا يمكن تحقيقها في غياب المسؤولية الأخلاقية الإسلامية التي تحدد مسار وسلوك الإنسان العربي وليس مجرد شعارات بلا مضمون، كما يروج القوميون العرب.

وفي إطار العوامل الخارجية يرى - زريق - استحالة العزلة مما يحدث في العالم، لأن كافة المشاكل غدت مرتبطة بما يجري على الساحة العالمية، أردنا أم لم نرد، فليس لنا خيار في ذلك.

والحقيقة الغائبة في ساحة الأفكار في العالم العربي، ولدى معظم المثقفين والمفكرين العرب والمسلمين، أن قضية التأثير والتأثر والتعامل مع المحيط الدولي والعالمي، تعد هذه القضية مما يشغل العقل العربي المعاصر، حيث أن الأفكار وآلية انتقالها من مجتمع إلى آخر، ليست مرفوضة، ولكنها مشروطة، فلا يعني على الإطلاق أن تتعامل مع المحيط العالمي وأنت مستلب الهوية والانتماء، فلا ضير من التفاعل الحضاري مع الآخر، ولكن المرفوض الخضوع والإحساس بالدونية أمام الغرب، حتى في مراحل تراجعنا الحضاري، فالمطلوب أن نتفاعل ولا نستلب، نتعامل ولا نخضع، ولن يتم ذلك إلا في استحضار الذات ومرتكزاتها، فمواجهة

تحديات المرحلة وتقدير الآخر لك، لن يتم إلا من خلال الخصوصية الحضارية التي توضح معالم الذات، وتنطلق لكسر حصار التخلف الذي يحيط بالمجتمع العربي الإسلامي. ولن يتم ذلك عن طريق تطور قوى الإنتاج وصراع الطبقات نحو المجتمع الشيوعي الذي تسيطر عليه طبقة البروليتاريا.

وهناك نظرية «شبنجلر» حول حتمية الدورة الحضارية، ومنها استقى نظريته حول «سقوط الغرب».

أما نظرية «أرنولد توينبي» فهي تفسر التاريخ وفق نظرية «التحدي والاستجابة» والتي تعتمد على اختيار الإنسان ومسؤوليته.

وأهم ما خلص إليه زريق بعض عرضه المختصر لفلسفات التاريخ، أن أهم التحديات التي تواجه الحضارات كافة في هذه الحضارة وليست خارجة عنها، وهذا يعني أن مشكلات الإنسان تحاصره من داخل ذاته وليس من خارجه أو من حوله، وقد عدد «زريق» أهم التحديات التي تواجه الإنسان المعاصر، ومن أهمها:

١- خطر الحرب الماحقة.

٢- خطر الحرب الباردة والحروب الموضعية.

٣- أخطار التسلح والتسليح الاقتصادية والاجتماعية.

٤- الخطر الخلقي الذي ينمي روح الضغينة والحقد في عصر لم يعد للإنسان فيه من ضمان للتقدم والبقاء إلا تعاطف الشعوب وتلاحمها في سبيل وحدة المصير.

ويرى «زريق» أن تقدم الحياة المعاصرة، قد أفضى إلى مجموعة من الأخطار من أهمها:

أ- التفجر السكاني.

ب- تناقص الموارد الطبيعية.

ج- خطر التلوث البيئي.

د- تضاؤل الريف وتضخم المدن.

obeikan.com

هـ- تزايد الانحراف والعنف والإجرام.

أما الخطر الخامس الذي يواجه البشرية، فيلخصه «زريق» في خطر اتساع الفوارق في المجتمع البشري واحتدامها، حيث كانت هذه الفوارق من أهم أسباب النزاعات والحروب، والاضطراب والتشتيت، والتطورات الحديثة كانت باتجاه تقليص جوانب الخير وتضخيم جوانب الشر.

والتطورات الحديثة لم تستطع أن تزيل الفوارق البشرية وآثارها السيئة، بل على العكس، ضخمت هذه الفوارق، ونفخت فيها أنفاسًا جديدة جعلتها تتسع شقة وتزداد احتدامًا.

الإنسانية ومواجهة الأخطار والتحديات:

يرى «زريق» أن العلم هو أعظم القدرات التي يمتلكها الإنسان المعاصر، وأهم ما يميز العلم المعاصر «تراكميته» و«شموليته»، ويشيد «زريق» بأهمية العلم بوصفه أعظم القدرات التي يتمتع بها إنسان اليوم، وما أروع العلم نظامًا وأسلوبًا وإنتاجًا، وما أشد أثره في تكوين الحاضر وصنع المستقبل، ومن أهم مشكلات العلم المعاصر، إمكانية استخدامه في الخير أو في الشر.

والإنسانية في ظل هذا الموقف تنقسم إلى قسمين: **الأول**: يرى أن الأخطار تفوق القدرات ضخامة، وأن الأوضاع الإنسانية سائرة إلى المزيد من التروي إذا لم يسرع الإنسان المعاصر إلى ضبطها والتغلب عليها. **والثاني**: يتخذ موقفًا تفاؤليًا مستندًا إما إلى القدرة العلمية والتقنية الزاخرة الكفيلة في نظره بمعالجة المشكلات الحاضرة والمقبلة.

بعد الحديث عن تحديات الواقع المعاصر وكيفية الرد والوقوف على تبعاتها يرى «زريق» أن العالم الجديد الذي يتولد يتطلب إنسانًا من نوع جديد، والتغيرات النوعية التي تحيط بنا تفرض قيام تغير نوعي في داخلنا، وستظل الحضارة الإنسانية

في اضطراب، وسيظل مصيرها مجهولًا ومحفوفًا بالأخطار ما لم يحدث هذا التغير النوعي الإنساني.

مطالب المستقبل العربي:

برزت في الآونة الأخيرة عوامل متعددة للاهتمام بالدراسات المستقبلية، وذلك لعدة أسباب من أهمها التغير المتسارع في الأوضاع البشرية، نتيجة للتقدم التكنولوجي، بالإضافة إلى آمال الإنسان المعاصر في تحقيق التوازن على المستويين العلمي والإنساني، بالإضافة إلى تعقد المشكلات الإنسانية وتشابكها.

والفكر المستقبلي في واقعنا العربي مازال متعثرًا بطيئًا متفرقًا. والواجب على النخب المثقفة أن تؤدي واجبها تجاه التفكير المستقبلي الذي نطمح إليه ونسعى إلى صنعه.

ولكن ما هي أهم مطالب المستقبل العربي؟ يرى «زريق» أن المستقبل وتحقيق التقدم منوط بجهد الإنسان، انطلاقًا من كون الإنسان هو محور الفعالية في حركة التقدم وصناعة المستقبل الواعد والمجدي في التفكير المستقبلي أن نقتصر على المستقبل القريب وأن نمضي في متابعة عملية الاستطلاع وتطوير أدواتها ووسائلها وفقًا للتطورات المستجدة، والتفكير المستقبلي ليس وليد الموضوعية وحدها، وإنما يتأثر بالعوامل الذاتية المتعلقة بالإرادة والطموح لتحقيق الإبداع الحضاري.

وهذا القلق حول مدى تطورنا النهضوي وقيمته خليق بأن يظل في مقدمة الهموم التي تشغلنا وتستدعي منا النظر المتجرد الناقد والتحري الدءوب ولا بد أن نعترف - كما يرى «زريق» - أن هناك العديد من الدراسات والخطط في جعبة العديد من أهل الفكر والعلم، وواجبنا تدعيم هذه الدراسات ونوفر لها وسائلها، ونحكم تنظيمها وتنسيقها بغية تفعيلها على كافة الأصعدة والمستويات.

ويعترف «زريق» بنقص الإمكانات اللازمة للنهوض ووضع الخطط المستقبلية

وذلك على مستوى المؤسسات العلمية المختلفة، في الوقت الذي تهدر فيه الإمكانات على جوانب أقل نفعًا وأكثر ضررًا بواقع المجتمع العربي وآماله وطموحاته، وفي هذا السياق يشير «زريق» إلى خطورة الفجوة القائمة في مجتمعنا العربي بين صاحب القرار وصاحب الرأي، ومواجهة هذا التحدي لا يتم إلا بمزيد من الحرية بين الطرفين وفي إطار الانتماء القومي الذي ينتمي إليه «زريق» حيث التعلق بالمصير القومي المشترك هو أقوى الحوافر وآمنها لسلامة الأمة ونهوضها.

وهو هنا يغفل مفهوم الرابطة الإسلامية بين شعوب المنطقة، كعامل أثبت التاريخ فشل أي توجه منشود في غيبته الذاتية الحضارية للمجتمع العربي من خلال المرتكزات الإسلامية، ولسنا هنا في حاجة إلى بيان ما يوجه من نقد إلى الخيار القومي، ويكفينا في هذا الصدد فشل المجتمع العربي في تحقيق وحدة عربية واضحة وفعالة، حيث أن هذه الرابطة العربية قد بذلت جهودًا كبيرة في سبيل التحقيق، وخير دليل على ذلك، الواقع المتردي الذي تحياه المجتمعات العربية.

وإذا كان «زريق» يقر ويؤكد على أهمية البعد الفردي والإنساني في المعادلة الحضارية، في سبيل تحقيق المطالب العلمية والمادية للمجتمع، فإنه يغفل المرجعية الدينية التي تنطلق من خلالها هذه المحاور والفعاليات، والتاريخ في هذا الصدد خير دليل.

وحول الدور المنوط بالجامعات العربية، يؤكد «زريق» على أهمية استمرار هذه المؤسسات، ومسؤولية العلماء والأساتذة في أن تحقق الجامعات دورها المنشود، في إطار التطوير والدعم المستمر لتحقيق رسالتها في حماية مصير وواقع المجتمع العربي.

كما يؤكد «زريق» على أهمية التراث في واقعنا الفكري والثقافي وذلك عن طريق توظيف واستثمار القدرات والقيم المستمدة من هذا التراث، وذلك من خلال القراءة الواعية لهذا التراث. كما يشير إلى أهمية القيم الأخلاقية في سبيل تحقيق الخير المنشود.

أهمية التاريخ:

لاشك أن التاريخ والوعي التاريخي، يعدان تعبيرًا عن الوعي بالماضي للتعرف على الأسس والمرتكزات التي ساهمت في صياغة وبلورة الكيان الحضاري لأمتنا، والرؤية الواعية للتاريخ تكسبنا معرفة بأصالتنا الحضارية، حيث ننطلق إلى المستقبل ونحن على بينة من جذورنا وثقافتنا.

وفي هذا الصدد يرى «زريق» أن تطور الوعي بالمعرفة التاريخية في هذا العصر، حدث لعدة أسباب من أهمها: التغير المتسارع في جميع الأوضاع البشرية السياسية والحربية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، يضاف إلى ذلك يقظة الشعوب التي كانت إلى عهد قريب سادرة وخاضعة للتحكم الأجنبي، فنهضت للتحرر من قيودها، وتعرفت على هويتها وسعت إلى تحقيقها، بالإضافة إلى كون المعرفة التاريخية جزء لا يتجزأ من الوعي الإنساني في الإطار المعرفي والفكري.

ويرى أنه من الضروري النظر إلى التاريخ من منظور حضاري، لأن هذا المنهج يساعد الإنسان على الإحاطة بنواحي الحياة على تعددها واختلافها.

ومن أهم الإشكاليات التي يثيرها الوعي بالتاريخ:

- المهمة العلمية الخالصة التي جاهد لاكتشافها وصيانتها.
- تنوع المادة التاريخية وتعدد مصادرها الزمانية والمكانية.
- الاختصاص الجزئي والثقافة التاريخية الواسعة.
- الموضوعية والذاتية.
- علاقة الماضي بالحاضر وبالمستقبل.

ومستقبل التاريخ والوعي به، مرتبط بمستقبل الكيان الإنساني عامة الذي يعاني أزمات وانكسارات وصراعات واضحة، وهذه الأزمات التي تبدو مستعصية

تتطلب إنسانًا جديرًا بها وقادرًا عليها.

فكرة التقدم:

يقرر «زريق» بأن هذه الفكرة حديثة المنشأ بالنسبة إلى تاريخ الإنسانية المجيد، ولكنه يرى أن هناك معالم رئيسية ترتبط بهذه الفكرة، وهو يعددها كالآتي:

عصر النهضة في الغرب، انتهاج العلم سبيلًا إلى المعرفة والخير الإنساني، فعصر التنوير الذي برزت فيه فكرة التقدم بوضوح، ثم فلسفة «أوجست كونت» حول «الفلسفة الوضعية»، ثم «أصل الأنواع» لـ «تشارلز داروين» وما أحدثه هذا المؤلف من مشكلات ومناقشات لدى قطاعات متعددة من العلماء والفلاسفة، والأخير يرتبط بالفلسفة الماركسية والتي تحولت من النظر إلى التطبيق وتمثلها أنظمة ودول وكيانات سياسية.

ثم تحدث عن الآثار الناجحة للحربين العالميتين الأولى والثانية، وتطور السلاح النووي، وانحسار الاستعمار ونشوب الحروب التحررية، والاضطراب الاجتماعي والخلقي، كل هذه المظاهر أثارت في الغرب شعورًا بالشك والارتياب في وجهة المسار البشري، ومن ثم حول مفهوم «التقدم».

وعلى المستوى العربي يرى «زريق» أن المشكلات التي تواجهنا تتفاقم يومًا بعد يوم، وأن الفجوة التي تفصلنا عن الشعوب المتقدمة تتسع بدلًا من أن تضيق، والأمر منوط بقدرة الإنسان وإرادته في مواجهة هذه الفجوة.

ثم يعرض «زريق» لثلاث محاولات حديثة لدراسة الحضارة، من خلال «اوزوالد شبنجلر» وكتابه الشهير «تدهور الحضارة الغربية» والثاني «أرنولد توينبي» من خلال موسوعته «دراسة التاريخ» ثم «بيتريم سوروكين» في كتابه «الديناميات الاجتماعية والحضارية» Social and Cultural Dynamics.

وهو يرى أن مشكلاتنا - بعد دراسة هذه النماذج هي مشكلات حضارية لا

سياسية ولا دفاعية ولا اقتصادية، فقدرة الشعوب - في حقيقتها - قدرة حضارية، وكذلك عجزنا وتخلفنا.

أزمة النهوض الحضاري:

يُعِدُّ «زريق» الأزمة العالمية الحالية، أزمة حضارية في مجموعها، وهي أشد خطورة من سابقاتها، وذلك لغلبة عنصر الشر على عنصر الخير فيها. وعلينا أن ننظر إلى هذه الأزمة في إطارها العالمي والإنساني الشامل.

ويعدد «زريق» مجموعة من الشروط الواجب اتخاذها لمواجهة تحديات الأزمة المعاصرة.

- إن التبدل المنشود، لابد أن يأتي جذريًا ونوعيًا.
- إن التبدل المنشود يجب أن يهتدي بالعقل خاضعًا لأحكامه، وهو من أهم المطالب المرجوة.
- إن العقلانية المطلوبة لا تأتي ولا نحصد نتائجها الإيجابية إلا من خلال جهاد مرير ومستمر.
- الحرية هي ضمان حيوي لتفعيل دور العقل.
- ضرورة ترقي الإنسان في سلم الفضائل، ودور الفضائل هُنا أنها تحافظ على مكتسبات الإنسانية الحضارية.

ويرى - زريق - أن معركة البناء القومي ومعركة النهوض الحضاري معركتان متصلتان متلازمتان، وهو يعتقد بأهمية القيم في حركة التاريخ للمجتمع العربي، وفي هذا الصدد يطرح «زريق» بعض الحقائق حول أزمة العصر.

١- إن المشكلات تمثل معًا أزمة حضارية تكتنف الحياة المعاصرة بكليتها.

٢- إن المشكلات الإنسانية ذات طبيعة جذرية وتتضمن أخطارًا رهيبة على

أمن الإنسان.

٣- إنها تفتح أمام الإنسانية أخطارًا ضخمة من جهة، وفرصًا جلية من جهة.

وزريق ينهي كتابه بعرض هام لسمات وخصائص الحضارة الإسلامية في الوقت الذي يطرح فيه البعد القومي لمواجهة أزماتنا المعاصرة، وهذا الطرح يعتبر من أهم التناقضات التي طرحها «زريق» وقد أشرنا إلى ذلك في ثنايا العرض.

*****

obeikan.com